

تأويلية رمزية الشر والدين والأخلاق عند بول ريكور

*The Symbolic Interpretation of Evil, Religion, and Ethics**in Paul Ricoeur*شارف فاطمة الزهرة charef fatima zohra •
فلسفة جامعة وهران 2 محمد بن أحمد – (الجزائر)

chareffatima72@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/12/26

تاريخ الإرسال: 2024/11/26

ملخص :

من بعض الإشكاليات الفلسفية القابلة للتحليل والنقد، فكان من بين هذه الإشكاليات المطروحة فلسفياً- التأويل أو الهرمينوطيقا التي طالما كانت محل طموحنا، وأثار في نفسنا شغف البحث والتقصي من أجل الوقوف على نتائج مرضية، والتي يمكن أن تضاف إلى الرصيد البحث الفلسفي، وبالحديث عن موضوع التأويل، سوف يحيلنا هذا إلى الفيلسوف الفرنسي بول ريكور، والذي أثار الكثير من الإشكاليات الفلسفية ضمن المشروع التأويلي، ويعتبر مفهوم معنى التأويل والرمز والدين والأخلاق.. الخ من أهم الموضوعات التي أثارها فيلسوفنا، ونحن بدورنا حاولنا الوقوف على أهم المحطات المفاهيمية، الفلسفة والتأويل عند بول ريكور، إذ تمحور انشغالنا على إشكالية التأويل وعلاقتها برمزية الشر والدين والأخلاق، حيث أمطنا اللثام على المفاهيم الثلاثة: (الشر، الدين، الأخلاق) وعلاقتها بالرمز عند بول.

الكلمات المفتاحية : التأويل؛ الرمز؛ الشر؛ الدين؛ الأخلاق

Abstract :

Among the philosophical issues that are open to analysis and critique is the topic of interpretation or hermeneutics, which has long been a source of ambition for us and has sparked our passion for research and inquiry in order to arrive at satisfactory results that can be added to the philosophical research corpus. Speaking of the subject of interpretation leads us to the French philosopher Paul Ricoeur, who raised many philosophical issues within the interpretive project. The concepts of meaning, interpretation, symbol, religion, and ethics are among the most important topics addressed by our philosopher. We, in turn, have attempted to focus on the key conceptual milestones of philosophy and interpretation in Ricoeur's

work, concentrating on the issue of interpretation and its relationship to the symbolism of evil, religion, and ethics. We have unveiled the three concepts: (evil, religion, ethics) and their relationship to the symbol according to Ricoeur

Keywords: Interpretation; Symbol; Evil; Religion; Ethics.

مقدمة:

تعتبر التأويلية بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، فن تأويل النصوص، وتطور هذا الفن خاصة في عمق الاختصاصات ذات الصلة بتأويل النصوص المقدسة، فالتأويل أو ما نطلق عليه اسم الهرمينوطيقا (Herméneutique) باللاتينية تعلق بكل المعارف، فمن النص المقدس إلى بقية النصوص الأخرى: النص التاريخي؛ الفلسفي؛ الأدبي. .. هناك عدة تعريفات للهرمينوطيقا أو ما يصطلح على تسميته بـ (نظرية التأويل).

بدايةً، نتطرق إلى ما يمكن أن يشير إلى عموم المفهوم، فالهرمينوطيقا، هي "نظرية التأويل"، وهي المبحث الخاص بدراسة عمليات الفهم، خاصةً، ما يتعلق بتأويل النصوص، ويمكن تعريف التأويل فلسفياً، بأنه التفكير حول العمليات الفهمية المتضمنة لتأويل النصوص والخطابات، ولهذا، اتسع مفهومها في القرن الثامن عشر والعشرين؛ فمن تأويل النصوص الدينية إلى تأويل النصوص الدنيوية.

مرّ التأويل عبر محطات مختلفة منذ نشأة مفهومه، فمن التأويل الديني، مروراً بتأويلات للنصوص مختلفة، كالنص الأدبي، التاريخي إلى التأويل الفلسفي، وهذا الأخير الذي هو محور بحثنا.

ومن النصوص التي تُدرج في التأويل الديني، والتي اشتغل عليها الفلاسفة: (يهودية، مسيحية، إسلامية).

- اشتمل تأويل النص المقدس كل الديانات (اليهودي، المسيحية، والإسلامية)، فكان لكل عقيدة تأويل خاص بها، لأن المعتقد واللغة هما الشرطان المحددان لتأويل النص الديني، فالإقبال على مسألة التأويل ليس بالأمر الهين، باعتباره مفهوماً إشكالياً، أثار الكثير من الجدل بين أهل الاختصاص من الباحثين في مجال الحقول المعرفية المختلفة، سواء قديماً أو حديثاً، فمن إشكالية النص الديني المقدس وصولاً إلى تأويل النص الإبداعي المدنس في مجال العلوم الإنسانية. (بارة، 2008، صفحة 19)

- يعتبر التأويل جوهر الممارسة الفلسفية، إذ كان مقتصرًا على الممارسة الدينية، وفي بحثنا هذا سوف لن نتطرق لأهم المراحل التي مر بها المفهوم، نظرًا للحمولة التي اكتسبها التأويل على مر الحقب التاريخية، ولذلك سوف نقتصر على مفهوم التأويل في الفلسفة الغربية. حاول الكثير من الفلاسفة المعاصرين الارتقاء بمفهوم التأويل لتخليصه من المعنى اللاهوتي، ويعود الفضل لهذا العمل المتميز للفيلسوفين شلايرماخر وديلتاي، اللذين أسسا معًا الأرغانون الجديد للعلوم الإنسانية. ليفكر هانس جورج غادامير في التأويلية من منحى آخر، بولوجها للمقاربة الأنطولوجية للمعنى، فكان لهيدجر وهوسرل، هابرماس نظريات تأويلية تختلف الواحدة منها عن الأخرى باختلاف الفكر الفلسفي للفيلسوف، وبول ريكور من بين هؤلاء الثلاثة الذين التحقوا بالركب التأويلي والفينومينولوجي في آن واحد، وبطرحه لمفهوم هيرمينوطيقا الارتباب (ماركس، نيتشه، فرويد)، حاول ريكور صياغة التأويلية في قالب متميز من شأنه أن يخدم الفلسفة الراهنة لفهم الإنسان. وعلى حد قول نيتشه: "ليست هناك حقائق هناك فقط.. تأويلات".

و في إطار البحث عن جواب لإشكالية علاقة الرمز بالدين والأخلاق عند ريكور، نطرح الأسئلة التالية:

- ما مفهوم التأويل عند ريكور؟

- ما مفهوم الشر عند ريكور؟ كيف كانت رؤية ريكور لعلاقة الرمز بالدين ثم بالأخلاق؟ وعلى هذه التساؤلات، ارتأينا أن نجيب على عناصر بالتدرج، محاولين الإلمام بوحدة الإشكالية.

يقول بول ريكور: " فقد كان العمل الناتج عن "Giffurd lectures" منتظماً حول أربعة استعمالات رئيسة لـ "أستطيع" فأنا أستطيع أن أتكلم، وأستطيع أن أتصرف، وأستطيع أن أروي، وأستطيع أن أعد نفسي مسؤولاً عن أفعالي وأن أتركها تنسب إلي كما تنسب إلى مؤلفها الحقيقي. (ريكور وتر مندر، 2005، صفحة 18)

وفي نظر ريكور، هذه التسلسلات الأربعة بالترتيب، وبدون تقديم أو تأخير الواحد عن الآخر، تدفع إلى طرح أسئلة بشكل متبادل تختص بفلسفة اللسان – وفلسفة الفعل والنظرية السردية، وأخيراً فلسفة الأخلاق. هذه الأخيرة التي تعتبر مفهوم تأسيسية في تيمتنا، وكل هذه التسلسلات المذكورة آنفا تفتح نفسها على مقاربتين، إحداها تحليلية وأخرى تأملية.

يركز بول ريكور في الهيرمينوطيقا على مسألة الفهم، وهو الاتجاه نفسه لهيدجر، الذي كان مشروعه للهيرمينوطيقا مختلف عن سابقه (ديلتاي، شلايرماخر)، ولقد أكد على الطابع التاريخي للفهم، لأنه لا يقوم على المقولات بل على الخبرة في كل لحظة من خلال اللغة، فاللغة فاعل أساسي، بل قاعدة أساسية لعملية الفهم كما يرى نصر حامد أبو زيد: "ليس ثابتا بل نتاج تجارب حياة. (زيد، صفحة 31)

اتجه ريكور منحى هيدجر لمسألة الفهم للهيرمينوطيقا، وانطلق من التحليل الأنطولوجي الهيدجري ليؤسس بذلك مسارا مختلفا لمسألة الفهم، حيث يعود إلى النصوص والمحكيات والسرد، فالفهم لا يحقق ذروة انطولوجية ما لم يكون هناك عود للبيئة التي ولد فيها المعنى. ونقصد بذلك المجال الرمزي المتمثل في السرد، في المقام الأول، وهذا ما يفسر عودة ريكور في كتاباته المتأخرة إلى التعديل، والتي كان قد تناولها سابقا في ما كتبه فينومينولوجيا، نذكر منها: الزمان والسرد في "صراع التأويلات" و"من النص إلى الفعل"، حيث سعى ريكور جاهدا تجاوز صراع التأويل بين نموذجين من الهيرمينوطيقا، هيرمينوطيقا "الثقة" وهيرمينوطيقا "الارتباب" ليجد طريقا بجمع بينهما، ليصل إلى التأكيد على أن الهيرمينوطيقا تنطلق من تاريخ الذات وتتجاوز صراع التجارب التأويلية.

(l'hermeneutique, 1993, p. 75)، وهذا خلافا للفيلسوف غادامير Gadamer الذي كان له نفس الانطلاقة من نظرية هيدجر للهيرمينوطيقا، وقد حاول ريكور دمج بين الاتجاهين؛ الاتجاه الأنطولوجي في الفهم، والمتمثل في هيدجر، والاتجاه الذي يعتمد على النزعة المنهجية في عملية الفهم، والذي كان مع دالتاي. (l'hermeneutique، 1993، 76)

كانت لريكور نظرة بعدية لمسألة الجمع بين التيارين السابق ذكرهما آنفا، لم تكن رؤيته للجمع، لذاتها، بل تعتبر انطلاقة لمشروع آخر أكثر جدية، وهو الانطلاق من فلسفة التأمل ليعيد صياغتها على مبدأ التأويل " لينتقل من الكوجيتو الديكارتي إلى كوجيتو جديد، وهذا التأسيس جمع بين عدة مجالات معرفية، فهناك فلسفة الوجود، ونظرية المعرفة التاريخية ثم نظرية اللسانيات ومسائل الفعل والذاكرة والتاريخ والبنية السردية، تتجمع كلها في وحدة نظرية متميزة " (l'hermeneutique، 1993، 76)

حاول ريكور من خلال مشروعه لمسألة تأسيس لهيرمينوطيقا إلى "إقامة أنثروبولوجيا فلسفية تمسك بالإنسان في كليته، أي من جهة ما هو عارف وفاعل ومنفعل. " (حسن، 1992، صفحة 12).

فنحن أمام لوحة فنية ممزوجة بالواقع والخيال من شأنها أن تعطينا انطبعا موحدا نستوعب من خلاله فهمنا للحياة. فبناء التأويل ضمن فينومينولوجيا صناعة أنطولوجيا للفهم من خلال ابستمولوجيا التأويل أو تأسيس أنثروبولوجيا فلسفية على خطى فلسفة تأملية. ولكي نستوعب المشروع الريكوري لفهم الذات بشكل مفصل، علينا أن نطرح السؤال التالي: ماذا يعني ريكور بالفلسفة التأملية وما علاقتها بالتأويل؟

تمتد جذور الفلسفة التأملية عند ريكور من الكوجيتو الديكارتية إلى كوجيتو جديد عبورا بكانط ثم الفلسفة الفرنسية والتي اختص بها Jean Wabert ومن المواضيع الأساسية الفلسفية التي تعنى بها الفلسفة التأملية تلك المرتبطة بمعرفة الذات باعتبارها حاضنة لعمليات المعرفة والإرادة، وهذا ما يقوله بول ريكور: "إن التأمل هو هذه العملية التي نعود فيها على ذاتنا في وضوح ذهني ومسؤولية أخلاقية لنمسك بموجها بمبدأ موحد لمختلف العمليات التي تتوزع عليها الذات والتي تنسى فيها نفسها بفعل هذا التشتت نفسه (ricoeur, 1986, p. 25)، تجاوز ريكور مفهوم: "الأنا أفكر"، الذي هو وحدة الإدراك المتعالي المرافق لكل تمثالتنا كما يراه كانط، وطرح أسئلة جوهرية على كيفية تعقل ذاتنا وبدقة أكثر كيف يتعرف الأنا أفكر على نفسه"، ثم تساءل ريكور عن مقاومة الكوجيتو الديكارتية أمام النقاد المعاصرين باختلاف مشاريعهم سواء جاء هذا النقد من المحورية الثلاثية في الارتياح: ماركس، نيتشه، فرويد، أو من الفينومينولوجيا الهوسرلية أو أنطولوجيا هيدجر، ليجيب ريكور أن كل هذا راجع إلى عنصر من نظرية الأخلاق. *Eléments pour une éthique*.

إن مفهوم الشر هو ما دفع بالفيلسوف بول ريكور إلى البحث في الحقيقة الإنسانية ككل، أو بالأحرى، إعادة فهم والتحقق من الحقيقة الإنسانية "إذا كان عليه أن يمزج الفينومينولوجي/الظاهري مع التفسير الهرمنوطيقي /التأويلي" (ريكور، فلسفة بول ريكور وأعماله كاملة، 2018). فكانت هذه هي نقطة تحول التي ركز عليها بول ريكور ليقدم لنا نظرية للتأويل متغلغلة في الفينومينولوجيا، هذه الأخيرة التي كانت بحاجة لهكذا منهج، التأويل، حيث صاغ ريكور أعماله الأولى في ثلاثة مجلدات التي استعرض فيها مفهومه لفلسفة الإرادة إذ ستوجهه هذه الأعمال إلى مشكلة الشر، التي حاول أن يعبر عنها في شاعريات الإرادة، لكن سرعان ما وضع هذا العمل الأخير جانبا وشرع في أعمال أخرى بدت له أكثر أهمية، وتعتبر من التحديات الجديدة لفلسفته خصيصا تلك الآتية من البنيوية.

تناول ريكور في المجلد الأول " الحرية والطبيعة، الإرادي والارادي، ثم فينومينولوجيا الإرادة، ووضع حقيقة مفهوم الشر بين قوسين، ونهل من المنهج الفينومينولوجي واضعا بذلك مسلك يكشف من خلاله عن إمكانات التحرير، بمعنى آخر تجاوز لأفكار هوسرل حول الفينومينولوجيا، لقد اشتغل ريكور على قضية مركزية التي تتمثل في الذاتي والموضوعي للوجود الإنسانية المعاش، حيث خالف بذلك سارتر الذي رأى أن " هناك تناقض حاد بين الوعي أو الشيء في ذاته " تناقضا يجعل ثمة مساحة من الحرية للشيء بذاته في مواجهة الواقع المحض للشيء في ذاته " (ريكور، فلسفة بول ريكور وأعماله كاملة، 2018).

فيرى ريكور من خلال هذا رؤيته لهذا التناقض الحاصل في المعنى للشيء لذاته والشيء في ذاته هو تكامل للأبعاد الإرادية واللاإرادية للوجود الإنساني، تمكن ريكور من إعطاء وصف فينومينولوجي/ظاهري للقواعد الثلاثة التي شكلت الإرادي عنده مركبة كالتالي: القرار، الاختيار، التحرك أي مباشرة العمل، وفي الأخير وجب علينا التسليم باللامشروط والضروري باللاإرادي الذي يترجم وجوديا بالفعل. فالبنى المذكورة آنفا ليست سوى محطات تقفز من خلالها الذات لتجسد نفسها لكن ليس ثمة تقارب بين هذه البنى وهذا ما يمكن اعتباره حرية محدودة " على البشر أن يتصارعوا مع التوتر الناشئ بين ذواتهم وبين تقبل حياتهم المتجسدة والعالم باعتباره شيئا لم يضعوه بالكامل، إن القرار الضعيف الناتج عن هذا الصراع هو ما يجعل حرية الإنسان إنسانية أصيلة في نهاية المطاف، ويمنحنا الهوية المتميزة باعتبارنا أفرادا وكأعضاء في مجتمعات تاريخية وأخيرا كجزء من البشرية عموما " (ريكور، فلسفة بول ريكور وأعماله كاملة، 2018).

يربط بول ريكور مفهومه لمشكلة الشر من خلال مفهوم الحرية في كتبه " الإنسان الخاطئ " و " رمزية الشر " 1960 تناول هذه الأبحاث وطرح سؤال كيف يمكننا إساءة فهم استخدام الحرية، وحقيقة إرادة الشر الذي اكتفى بوضعه بين قوسين في عمله التمهيد الفينومينولوجي، ويرى بول ريكور أن التقارب الموجود في الجنس الإنساني_ المتموضع بين الطبيعة المحدودة له وللخبرة المعطاة وللأبعاد العقلانية التي أخذها من التجربة عبر المشاهدة والممارسة والشعور مؤدية لمفهوم الخطأ - يقول ريكور " الإنسان هو ذلك الوحدة الجمعية والتجمعية حيث على وحدة التوجه واختلاف المصائر أن تفهم من خلال بعضها " (ريكور، فلسفة الإرادة-الإنسان الخاطئ، 2008، صفحة 138).

هذا التفاوت الحاصل والذي يظهر في كل جوانب الوجود الإنساني من قوة وسيادة وممتلكات، سبب تناقضا الذي يعني أننا لا نتفق وبالتالي لا نتوحد دائما أبدا مع ذاتنا، إذن فالخطأ وارد لا محالة بل أكيد – نحن نخطئ فقط فإساءة استخدام الحرية والشر مفهومان غير متأصلان فينا ولا حتى ضروريان هما فقط ممكنان الحصول.

يقول ريكور " القول بأن الإنسان خطأ، يعني أن المحدودية الخاصة بالكائن الذي لا يتطابق مع نفسه، هي الضعف الأصلي الذي ينبثق منه الشر ومع ذلك فإن الشر لا ينبثق من هذا الضعف إلا لأنه يتموضع، هذه المفارقة الأخيرة ستكون في قلب رمزية الشر " (ريكور، فلسفة الإرادة -الإنسان الخطاء، 2008، صفحة 217)

ظلت أفكار ريكور متسقة دائما مع المثل التي وضعها في كتابه " فلسفة الإرادة " أدركت أفكاره الأولى الحياة باعتبارها دياليتيك إذا كنت أستطيع " يعني الاستطاعة في التكلم – التصرف – أروي – وأن أعد نفسي مسؤولا فمن هذه الناحية أنا سيد نفسي أختار ما أقوم به وفق إرادتي (هذا الجانب الإرادي) لكن في المقابل يوجد لي جانب اللاإرادي) لأنني خاضع لضرورة كوني في العالم وسط أشياء خارجة عن نطاق إرادتي علاوة على كوني من أنا لدي طابع معين وعقلا باطنا يقف حائلا في مواجهة إرادتي وهو (الجانب اللاإرادي) نعيش حياتنا بين طرفين هما – الطرف الأول الحرية التي منحت لنا ككائنات بشرية والطرف الثاني القيود التي فرضتها علينا حقيقة أننا نعيش ككائنات بشرية وسط العالم.

أولى ريكور اهتمام كبير بمسألة الخير والشر كمفهومين متأصلان في الطبيعة البشرية إذ بحث في كيفية أو طريقة التولد المستمر لهذين المفهومين داخل حلقة الدياليتيك الإنساني بين حرية الإرادة الحرة والضرورة.

رأي ريكور أن مفهوم التفاوت والذي سبق وأن تطرقنا إليه، الذي يوصف به الوجود الإنساني غير كفيل بأن يقدم لنا سرداً للواقع الحقيقي لإرادة الشر والأفعال الشريرة – كذلك يجب أن تتدخل وساطة من أجل تحليل عميق لهذه الظاهرة، فكان لابد من وساطة الكوجيتو كما رأى ذلك كل من ديكارت وهوسرل – فتفسر بذلك ما هي أسباب ظهور الشرور المحتملة. لكن الكوجيتو كما افترضه ديكارت وهوسرل – تحيط به ضبابية من حيث " علامات أودعتها الأدبيات الكلاسيكية العظيمة في الذاكرة والخيال ". (ريكور، سيرة ذاتية فكرية في هاهن، 1995، صفحة 16)

تعتمد ريكور لطرح هذا الشك من أجل بناء مشروع هيرمينوطيقي متعدد المنعطفات، لقد ربط ريكور وقوع الإنسان في الخطأ باعتباره - غير معصوم - إلى سقوطه الذي تحقق فعلا، وبذلك بإقراره بمقدرته على فعل الشر ويعبر عنه ريكور بالإقرار في رموز الشر". فمن خلال كتابه رمزية الشر - توصل ريكور أن الإنسان ليس فقط قابلا للوقوع في الخطأ، ولكنه قد سقط بالفعل في الخطأ لقد " انتقل من إمكانية الخطأ لدى الإنسان إلى واقع الخطأ، من قابلية الوقوع في الخطأ إلى الخطأ".

فصل بول ريكور في مسألة الشر في كتابيه " رمزية الشر " و " الإنسان الخطاء " حيث حاجج لأنه يجب على الإنسان أن يأخذ في الحسبان كيف حاول الناس التصالح مع عدم استطاعتهم على تفسير وجود الشر باستخدام اللغة إذ توجب إسنادها إلى الرموز العظمى والأساطير التي تتحدث على أصل العالم ونهايته، فاللغة الرموز إذ تحمل أكثر من معنى وتفهم على أكثر من وجه باعتبار العالم متعدد اللغات، إذن فهي دائما تحتاج إلى تأويل، إذن الفلسفة هي تعلم فهم لغة كهذه - لغة الرموز- ووجب لزوما التفكير انطلاقا منها حيث قالها ريكور في عبارته " يمنح الرمز الازدهار للأفكار " (ريكور، رمزية الشر، 1967، صفحة 347)

و الحديث عن الرموز يحيلنا إلى "وفرة اللغة " فاستخدامات اللغة يجب أن تتجاوز الكلمة أو الجملة أو حتى الفقرة، ومن التي نستعملها للبرهنة المنطقية، مثل الرموز التي هي عبارة عن أشكال تعبيرية خطابية ذات حمولة، حيث تحمل أكثر من معنى، ولكي نستوعب أكثر فهم لمعنى وفرة اللغة يجب ربطها بتطور نظرية التأويل، فالخطاب المباشر أي الفعلي أحادي المعنى، تتغير معانيه مع مرور الوقت أي في حين يبقى الخطاب الأصلي لقائليه والمواقف التي قيلت هي الأساس.

يحسب بول ريكور من بين هؤلاء الذين كان لهم حضور قوي جدا فيما يتعلق بالنش في مفهوم الرمز وتجديد معناه وعلاقته باللغة. والسؤال المطروح هل يمكن فعلا أن يجد الرمز مكانة له في التفكير الفلسفي ضمن الدائرة التأويلية، الهيرمينوطيقية l'herméneutique وبالتحديد داخل الفلسفة التفكيرية لبول ريكور la philosophie réflexive.

يعرف الرمز "symbole" بالشكل الذي يدل على شيء ما له وجود قائم بذاته يمثله، ويحل محله بمعنى أن الرمز شكل يدل على شيء غيره " (عطية، 1992، صفحة 189)

يملك الرمز قدرة على أن يتحلل في الفروع المعرفية المختلفة لاكتسابه شحنات دلالية واسعة، فهو أحد الأسس الإجرائية التي يمكن من خلالها تحليل قواعد معرفية متنوعة يقول حسين الزاوي " فالفكر الرمزي هو القسمة التي تجمع الكل، والمعرفة العلمية هي القسمة التي تجمع البعض، كل عمل إنساني موسوم بالرمزية، ولكن ليس كل عمل هو معرفة علمية "، (،، 2002، صفحة 27)، لذا فالرمز يعد أحد صور التمثيل غير المباشر الذي لا يسمى الشيء باسمه " (أرنولد، 1998، صفحة 56)

فهو وسيلة تعبيرية إجرائية نلجأ إليها من أجل الإيحاء بالمعنى المراد التعبير عنه دون أن نفصح عنه بصريح العبارة، إذ يتميز بخصائص مختلفة تجعله متميزاً عن العلامة والشارة، والأيقونة " التي تعتبر هي الأخرى مفاهيم لغوية ذات دلالة معرفية، وقوة الحمولة التي اكتسبها الرمز هي ما دفعت الكثير من الباحثين سواء في المجال العلمي التجريبي أو الفلسفي كالدين- الفن – الأنثروبولوجيا – علم النفس.. "

إذا سلمنا أن الرمز هو أحد صور ذلك التمثيل غير المباشر فإنه يقصد الابتعاد عن الوصف المباشر لشيء ما أي أخذ مسافة معينة للمعنى المراد تعريفه إظهاره بشكل يلفت النظر أو إخفائه كلياً فيقول " أرنولد هاوزر "لعله يهدف إلى إخفائه وكشفه في آن واحد " (أرنولد، 1998، صفحة 56)

ألا يمكننا اعتبار الرمزية مجرد إشارات ورموز ذات دلالة ميتافيزيقية وليست دائماً مطابقة لعالم الواقع إذ سلمنا أننا بأنها لغة إجرائية معرفية يقول محمد عزيز نظمي " وبما أن الرمزية هي بمثابة إشارات أو رموز موحية دون أن تكون دلالات مطابقة للواقع والمنظور الطبيعي لعالم الأشياء الخارجية " (نظمي، 1998، صفحة 122)

فإن الاهتمام الفلسفي بالرمزية يعود لسبب واحد وهو كشف الرمز عن بنية المعنى وعن الغموض الذي يكمن وراء المعنى والذي يمكن تعريفه بالكينونة أي أن الذات تعبر عن نفسها بأوجه مختلفة وعلة وجود الرمزية هي انفتاح تحدد المعاني على غموض الذات.

أصبح جلياً الآن لماذا ريكور ألح على ضرورة طرح مفهوم الرمز le symbole وما الدافع إلى توظيفه على أرضية الفكر الفلسفي ما بين محكين الأول في التفسير l'interprétation والثاني التأويل l'herméneutique محاولاً معالجة الإشكال من منعطف الفهم اللغوي هذا ما رام إليه بول ريكور، إلا أن يقودنا إلى معاودة البحث في أسباب أزمة المعنى le sens

الفلسفي داخل الحقل الفينومينولوجي والبنوي، مثلما أكد ذلك في كتابه صراع التأويلات.
(Paul recoeur, 1969)

حاول بول ريكور جاهدا دمج هيرمينوطيقا الرموز في صلب الخطاب الفلسفي كفرض تحول الفلسفة التأملية، التي قامت على البديهية الحدسية، فالهيرمينوطيقا تؤدي إلى تعديل داخلي للفلسفة التأملية، إذ تصبح معارضة لفلسفة الشعور التي كثيرا ما ترسخت بالكوجيتو الديكارتي"، (، ن.، 1998، صفحة 15)

هذه النظرية التي لم تصمد كثيرا أمام الانتقادات الكثيرة وبشدة وبطرق مختلفة من قبل فلاسفة كثر متعددي المشارب. فجاء فحوى التعديل للكوجيتو الديكارتي من طرف ماركس- نيتشه - فرويد وهوسرل، فيؤكد ريكور بأن وجودنا تغلفه عتامة أصلية تدفعنا بالاستمرار إلى فك الرموز لمختلف التغيرات وهذا من شأنه عدم إمساك الذات بشكل مباشر وشفاف" (حسن، 1992، صفحة 13)

يتعذر علينا محاولة الإلمام بكل الدلالات للإشكال المفهومي للرمز " le symbole لدى بول ريكور إذ تعددت هذه الإشكالات المفاهيمية بتعدد فضاء الفكري، حيث يختلف فيه منطق التحليل ما بين منهج الغاية المنشودة للقاريء وعمق أبعاد فرضيات الفيلسوف، لكن سنحاول أن نتتبع خطوات ريكور ضمن إطار المفاهيمي للدائرة الهيرمينوطيقية من خلال التمشي اللغوي الذي ساقنا لفهم وتفسير الوظيفة الرمزية " للشر " في حدود التأويل.

و للوصول إلى تعريف " الرمز " لابد من اتباع منهج بحث معين يعيننا باعتبار أن بداية تفسيره بدأت ضمن الحقل اللغوي، إذ يتطلب إدراج مفهوم الشر، كما هو إشكالية فلسفية تعددت بخصوصها الأبحاث في فضاء التأويل اللغوي حتى نتبين ما إن كانت إشكالية الشر لها وجود سابق عن الانسان أم أن هذه المسألة اقترنت أساسا بإرادة الذات الإنسانية باعتبارها تشترك في الوجود مع ذوات أخرى هذا الذي لا يمكنه إلا أن يحيلنا إلى ارتكاب الإنسان للخطأ.

وهنا سوف نجد أنفسنا أمام تحد آخر، وهو البحث عن المفهوم ضمن أفق الديمومة التاريخية لسردية الحدث.

حاول ريكور أن يضبط مفهوم " الشر " le mal باقترانه مع " الرمز " le symbole اعتبر ريكور " الرمز بما هو أرضية لغوية و " الشر " بما هو إشكال فكري " (الخليفي-، 2015، صفحة 160)

و بحديثنا عن " رمزية الشر " إلا ولابد للعودة إلى أغلب الحقب الفلسفية السابقة، لأن تفسير المفهوم فيها يقتزن بالأسطورة بامتياز، إذ سعى " بول ريكور " إلى جر المفهوم للحقل اللغوي ومحاولته المستميتة لتحليله من أجل إعطائه دلالة عقلية، فما كان على الفيلسوف الانعطافي إلا ربط أبعاد الرمزية لعقلانية العقاب محاولة منه تهيئة أرض الشر في حدود التجربة الانسانية.

و الحديث يطول في تاريخ الفلسفة برمته من اجل الوصول إلى تعريف لمفهوم إشكالية " الشر " ومعالجته بما أن دلالة مفهوم الرمزية اقتزن بوجود الانسان على الأرض. وكلمة الشر التي تعني أن الإنسان أخطاء تقتزن بمفهوم آخر لا يقل حمولة معنوية مثلها وهو الخير في أسى معانيه، حيث يتعذر فهم أو تفسير أحدهما إلا بلزوم حضور الآخر. فوجود الشر يلزمه وجود الخير وهذا ما اختلفت فيه التعريفات التاريخية في الفلسفة. فالفلسفة الإغريقية مثلاً قرنت مفهوم الشر بالجهل الذي يقابله الخير بحب الحكمة فيؤكد على ذلك أرسطو بقوله " إن كل الفنون..و المعارف...و جميع أفعالنا.. غرضها شيء من الخير، مما يجعل تعريف الخير : إنه هو موضوع جميع الأمال " (نصري، 2001، صفحة 273)

أدرج ريكور الكثير من المفاهيم ذات صلة برمزية الشر، فالحديث عن معنى الشر يحيلنا إلى الحديث عن العقاب – الجريمة – العدل، العفو – فبالحديث عن إدراج مفهوم العقاب في فضاء الدائرة التأويلية للهيرمينوطيقا كما رأى ذلك ريكور " تبين السمة المميزة لعقلنة رمزية الشر من خلال فرضية الجريمة (الخليفي-، 2015، صفحة 176) "، حيث اصطحبنا من خلالها بول ريكور إلى حقل الخطاب اللغوي للقوانين الحقوقية حيث يتلج المفهوم ما بين الاستعارة " la métaphore والقياس أو التماثل l'analogie حتى يعاود صياغة المسألة في إطار الفهم اللغوي وفي نفس الوقت عقلنة رمزية الشر الأسطورية من خلال ضمها لشبكة مفاهيمية حقوقية كالعفو – العقوبة – الوفاء بالوعد – الاستغفار والرحمة. (Paul recoeur، 1969، صفحة 365)

اشتغل ريكور على هذه الصياغة اللغوية وأدلتجها ضمن الدائرة الهيرمينوطيقية التي تمنحنا فك الالتباس بين المفاهيم واكتشاف المعنى الحقيقي لعقلنة الأسطورة ليصبح التمثل القانوني لفرضية العقاب انطلاقا من عملية المقاربة بالاشتغال عليه لغويا حتى يتم تقريب المعنى إلى الفهم والتفسير " فمثلاً أن الخطيئة الأصلية انجرت عن خطأ الإنسان الأول، يمكن لنا كذلك في أفق التأويل اللغوي، أن نكتشف أن طاعة هذا الإنسان الأول

جعلت جميع الناس أبرار أي أن خطأ الإنسان الواحد قد جر الإدانة لكل البشر، كذلك يرى واحد يكون لجميع الناس تبرير الحياة لأنه إنسان واحد، جعل الكثيرين خطاة كذلك بطاعة واحد يجعل الكثيرين أبرارا" (Paul recoeur، 1969، صفحة 367)

إن عقلانية العقاب مرهون بمحو أسطورة رمزية الشر التي تتمثل في دلالة العفو الذي يندرج ضمن باب الرحمة *mésérconde* هذه الصفة التي تعتبر الأساس القاعدي لأي إيمان لأن وجودها يفرض هيمنة العدالة بين الذوات، هذا ما توصل إليه ريكور من خلال قوله " إن العدل الذي يحيا يعيد العدل الذي يدين، وإن منطلق العقاب المزعوم ليندرج ككتلة في التطور في يوم الغضب (...) سينكشف الحكم العادل لله الذي سيرد لكل واحد ما يستحق تبعاً لأفعاله " (Paul recoeur، 1969، صفحة 431)

حتى نصل إلى دلالة عقلانية العقاب يجب النظر إلى أفعال المخطئ أو المذنب المسيء - قبل ارتكابه للخطأ من أجل تطبيق عقلائي للعفو، باعتبار العقاب ضرب من ضروب الإصلاح ولا نعني به الانتقام أو القصاص، في الكثير من الأحيان تطبيق العقوبة تعيد النظام (...) هذه الملاحظات المتحررة من الوهم تدفعنا أساساً إلى التأكد من الدلالة الأخلاقية للعقوبة " (ريكور وتر منيرة، العادل، 2003، صفحة 244)

. لنعاود القول بأن الغاية من عقلنة العقاب هو تطبيق العدالة داخل المجتمع، وهيمنة العدالة لأي مجتمع هو تجسيد الروح الإيمان، وهذا ما يحيلنا إلى عنصر آخر من عناصر النظرية التأويلية عند ريكور وهو رمزية الأخلاق. والسؤال المطروح كيف يمكن للأخلاق السردية أن تكون رمزا مغايرا لرمزية الشر ؟

كشف بول ريكور من أعماله الفلسفية خصوصاً تلك التي تناولها بعد " صراع التأويلات " حيث تناول العديد من الموضوعات ذات صلة، إذ كشف في البدء عن المستوى الأول لممارسة مناهج التأويل لأنها نقطة مرجعية لتوسيع الفهم للمؤول والعالم باعتبار أننا نقيم داخل هذا العالم، أما في المستوى الثاني توصل إلى اكتشاف المعنى اللغوي حيث اتسعت دائرة المجال اللغوي لاحتوائها على أشكال أخرى من الخطابات كوحدة كلية، فاللغة لم تصبح محدودة في جملة أو فقرة بل أضحت للغة استخدامات أكبر من كونها لغة تداولية مشكلة من مجموع كلمات أو حتى نصوص يتعذر " اختزال حقيقة ومعنى الخطاب كوحدة كلية إلى مجموع قيم الجمل المكونة له، انطلاقاً من هذين المستويين المتشابهين، تمكن ريكور من تناول أسئلة الذاتية ومسؤولية الفعل الإنساني، وتمكن من أن يتناول

بالتفصيل نظيرة أخلاقية كانت دوما حاضرة في فلسفته " فلسفة بول ريكور وأعماله كاملة – مجلة حكمة – pdf

ربط ريكور بين رمزية الشر والأخلاق في الكثير من أعماله نذكر منها الإنسان الخاطئ في فلسفة الإرادة وفي مؤلفه لصراع التأويلات، فالحديث عن الأخلاق يحيلنا إلى التركيز على العلاقات بين شخص وآخر. أو بين شخص والكثير من الأشخاص وهنا ننتبه إلى مسألة مهمة. فجميع العلاقات هذه تعني التعايش مع الآخر مع من يلتقيهم يوميا أو يكونون غرباء عنا لأننا نعيش في عالم يتحتم علينا التعامل مع الآخر مهما اختلفنا معه في اللغة أو الدين أو الثقافة.

يعتبر الوجود الأخلاقي معطى نفس اجتماعي ذا قيمة مميزة يشتمل عليه كل مجتمع إنساني، فبحديثنا عن الأخلاق يحيلنا إلى الحديث عن كل ما يتصل بالسلوك ضمن دورة الحياة الاجتماعية لكل المجتمعات.

إلى أنه استوعب البشر وجودهم، وميزوا بين الوعي العملي لواقعهم وأفعالهم وفهمهم النظري " أي فهم نظرية عملية تحاول تفسير ما هم عليه (...) وقد قادهم هذا النشاط الفكري، إلى التمهّل أمام ينبوع السلوك الأخلاقي، فوجدوا أنه ينبع من النفس أو الشعور وأطلقوا على هذا الينبوع اسم الوجدان أو الضمير أو الحس الأخلاقي قائلين إنه صوت نبيل يدعوا إلى الخير "

لعله إشكال آخر يندرج ضمن فلسفة "بول ريكور" ما هي الحدود الفاصلة أو الهوية الفكرية ما بين الأخلاق ورمزية الشر، وهذا الذي حاول ريكور للفصل فيه بالعودة إلى تأويلية الظاهرة الدينية وهو الملقب المؤمن المسيحي.

ولوضع كل مفهوم في سياقه الخاص، تناول ريكور المسألة من زاوية تحتم على القارئ إلا أن يعود إلى تفكيك وفهم لغة النص الديني داخل بوتقة الهيرمينوطيقا اللغوية ساعيا لانتقاد الوهم الأخلاقي المسيحي الذي اعتبره في الأساس ذا تأصيل ميتافيزيقي، إذ يتعذر الاعتراف بأنها أخلاق نظرية في ظل انعدام فضاء الممارسة الفعلية للإنسان المعاصر.

رام ريكور لمعاودة تأسيس لمسألة الأخلاق ضمن دائرة الهيرمينوطيقا فإن بول ريكور " يجسد مسألة الأخلاق من منظور مفهوم الإلزام " على أرضية التحليل اللغوي لفك دلالتها الرمزية القائمة على وهم الوعي " (الخليفي، 2015، صفحة 186)

ساعيا للقبض بالمعنى الأخلاقي من داخل هذا الوهم، أثناء عملية تأسيس المفاهيم التفكيرية، فمن الجانب النظري إلى الجانب العملي، ذلك الذي يجلب الوفرة من خلال قوة التفسير وعمق الفهم للمسألة، إن التحدي الذي ساقه بول ريكور في هذا الإشكال والذي توجب علينا توضيحه في دراسات أخرى، أكثر عمقا محاولة خلق وضعية تمركزا (بين ثنائية الالتزام) للأخلاق ضمن ثنائية "الإلزام" والواجب " هذه الخطوة من بول ريكور ما هي إلا حالة فكرية تهدف لغايات متعددة، أهمها توفير قاعدة للأخلاق ضمن فضاء التجربة اليومية للإنسان المعاصر، "فإذا أحسست بأني أو اعتقدت بأني ملزم، فذلك لأني كائن يستطيع أن يتصرف، ليس فقط بسبب إغراء الغريزة، أو بسبب ضغط الرغبة والخوف، ولكن بسبب وضع قانون أتصوره " (Paul recoeur، 1969، صفحة 424)

إن ولوج الإلزام الأخلاقي ضمن التمثل القانوني يعزز التطبيق القانوني العادل الذي هو في الأصل تجسيد لوظيفة العقل الرمزية، الموجودة من خلال ترسيخ القانون ضمن التجربة المشتركة، والواقع الوجودي.

- لكن ما يروم إليه ريكور هو أنه لا يجب أن يقع فهمنا للقانون على أنه مبني على أساس وضعي أو مستوحى من القوانين الوضعية أو مستمد من سلطة الدولة، القانون الذي يقصده ريكور هو قانون الإرادة العقلية التي يعني بها تجسيد لرمزية الإرادة الطيبة التي تهدف لهيمنة الخير الأعظم في داخل فضاء الوجود والحياة أثناء عملية الاعتراف بارتكاب الخطأ. هذا الفعل الذي نتج عن الحرية المطلقة التي تمثل توالد الشر للعيش اليومي.

فعملية الالتزام الأخلاقي والإرادة الطيبة التي تدفعني إلى القول حينئذ إني قد " ارتكبته وإن هذه الحركة من أمام المسؤولية التي خلفها تمثل الجوهرية، إنها تكون هوية الذات الأخلاقية وتطابقها من خلال الماضي والحاضر والمستقبل وإن هذا الذي سيحمل الخطأ هو عين ذلك الذي يأخذ الآن على عاتقه الفعل، وعين ذلك الذي كان قد فعل " (Paul recoeur، 1969، صفحة 494)

ففعل الاعتراف هو ما يحيلنا إلى عملية التفكيك اللغوي لرمزية الشر ضمن مسألة الأخلاق التي يعول عليها " بول ريكور " كمنهج تحليلي من أجل بناء هوية الذات الأخلاقية المبنية على فعل الإلزام والإرادة الطيبة، وضبط مفهوم الحرية ضمن نسق عقلاني، الأمر الذي يحد من استمرارية الخطأ.

خاتمة:

يعتبر بول ريكور الفرنسي من بين الفلاسفة الكثرين الذين اشتغلوا في إشكالية التأويل، لكن فيلسوفنا وبخلاف الآخرين كشلايرماخر ودالتاي وهيدغر وغادامير، وسع في المبحث الهيرمينوطيقي للفلسفة المعاصرة، إذ أسس لدائرة الهيرمينوطيقا بخطوات منهجية مستعملا الوفرة اللغوية المفهومية لتبدو وكأنها تكملة أو مواصلة لإشكال ما، فيما كان كائن وما سوف يكون. فخلافا لدالتاي رأى أن الفهم والتفسير قطبان غير متعارضان، فعند دالتاي أن الفهم – لا التفسير – هو منهج العلوم الإنسانية وأن التفسير – لا الفهم – هم منهج العلوم الطبيعية، فأكدر ريكور على وجود تماسك كبير بين الفهم والتأويل كما أن هيرمينوطيقا بول ريكور تهتم بالأسئلة المنهجية الاستمولوجية خلافا لهيدجر الذي اقتصر على أنطولوجيا الفهم وتميزت كذلك على هيرمينوطيقا غادامير تتباين هيرمينوطيقا بول ريكور مع باقي النظريات التأويلية لفلاسفة كثر إذ تتصف بسمات رئيسية، يصعب تصنيفها نظرا لانفتاحها على فروع معرفية متعددة ولذلك لقب ريكور ب فيلسوف التخوم " un philosophie des frontières الذي يقصد به الفيلسوف الذي انشغل وحرص على التكامل والتضمن بين الكثير من الميادين المختلفة للمعرفة، حيث تحاشى الاشتغال على ميدان معرفي واحد، فهنا من شأنه أن يفصل العلاقات المعرفية التي قد تبني على قاعدة تكاملية معرفية تربط بين مختلف الفروع المعرفية الأخرى، لذلك فإن ريكور رغم اطلاعه على النظريات المعرفية الأخرى، كالفيينومينولوجية الهوسرلية وقبلها فلسفة ديكرت المبنية على " الكوجيتو الديكرتي " والوجودية إلا أنه صاغ منهجية تفكيرية تجمع ما بين الكل فتعارض أحيانا وتتقارب أحيانا أخرى.

قامت الفلسفة الريكوية على بعدين أحدهما داخلي والآخر خارجي، المقصود بالأول هو الكتابات والخطابات المتصلة فيما بينها لتشكل وحدة ومضمون فلسفيين يعني الاشتغال ضمن النسق الفلسفي أما البعد الثاني فيتميز بالاشتغال على الدراسات الأخرى وربط العلاقات بينها من خارج الفلسفة – كالعلم واللاهوت.

دخل بول ريكور في حوار فلسفي في بداية القرن العشرين مع أهم التيارات الفلسفية : الفيينومينولوجيا والفلسفة التأملية وفلسفة اللغة والاستمولوجيا والأخلاق والفلسفة السياسية باعتبارها شاهد على الحرب العالمية الثانية.

هذا الحوار الذي لم يستثني تيارات وميادين فلسفية وعلمية أخرى – التيار البنيوي – علم اللغة، التحليل النفسي.. وعلم اللاهوت، أو التيولوجيا Théologie هاته الحوارات التي أنتجت هذا الزخم الكبير لفلسفة بول ريكور، فكانت أزمة الذات من أهم الإشكالات التي رام فيها بول ريكور محاولاً دراسة الذات وما يربطها بالآخر ضمن فضاء تأويلي متجدد للفكر الفلسفي المعاصر ولعلنا في بحثنا هذا نكون قد توصلنا إلى أهم المفاهيم التي سعى ريكور من خلالها وبها إلى الوصول إلى فهم الذات ضمن الحقل التأويلي عند بول ريكور ومجمل المفاهيم التي اشتغلنا عليها ما هي إلا جسوراً عبرنا من خلالها للتعمق في معنى الذات. فالتأويل – و الرمز – والشر والأخلاق عند ريكور إذ من المفاهيم الأساسية التي بنى عليها فلسفته هيرومينوطيقته، فما كان علينا إلا أن نقوم بربط هذه المفاهيم فيما بينها لتقدم صورة تحليلية ليست بالعميقة لمفهوم التأويل عند ريكور وعلاقة الرمز بمفهوم الشر والدين والأخلاق.

المصادر والمراجع

- عبد الغاني بارة - الهيرومينوطيقا والفلسفة / نحو مشروع عقل تأويلي - الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف. الطبعة الأولى 8200.
- بول ريكور - صراع التأويلات - دراسة هيرومينوطيقية - تر: منذر عياشي، مراجعة د. جورج زيناتي دار الكتاب الجديد المتحدة ط - 2005
- نصر حامد أبو زيد - إشكالية القراءة وآليات التأويل
- حسن بن حسن - النظرية التأويلية عند بول ديكور - منشورات الاختلاف
- بول ريكور - فلسفة الإرادة - الإنسان، المركز الثقافي العربي ترجمة عدنان نجيب الدين - الطبعة الثانية - 2008.
- ريكور - سيرة ذاتية فكرية في هاهن 16 - 1995 / ملحوظة: مترجم للعربية تحت اسم " بعد طول تأمل).
- محسن مُجد عطية- الفن وعالم الرمز - دار المعارف بمصر - القاهرة ط2 د - 1992
- الزاوي الحسين - الفلسفة الواصفة - مركزا الكتاب للنشر - ط1 مصر 2002
- هاوزر أرنولد : فلسفة تاريخ الفن - ترجمة عبده جرجس - سلسلة الألف كتاب، العدد 285، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية، مطبعة جامعة القاهرة 1998
- مُجد عزيز نظمي - القيم الجمالية، دار المعارف - الإسكندرية د.ت-
- نبية قارة الفلسفة والتأويل. دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1998
- علية الخلفي - الرمز في فلسفة بول ريكور، ابن النديم للنشر والتوزيع دار الروافد الثقافية الطبعة الأولى - 2015
- بول ريكور - العادل - ترجمة - منيرة بن مصطفى.

المجلات :

- حكمة فلسفة بول ريكور وأعماله كاملة سنة 2018.
- ريكور - سيرة ذاتية فكرية 1965.
- الموسوعة العربية الفلسفية - باب فلسفة الأخلاق.

الأجنبية :

- J-Grondin. L'universalité de l'herméneutique, paris P.U.F-1993
- P Ricoeur. Du texte à l'action Edition du sevil 1986
- P. Ricoeur le conflit des interprétations, chapitre 2, Herméneutique et psychanalyse, éd sevila, Paris 1969